صلح الحديبية سنة(6هـ/627م):

في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة خرج النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومعه الف وأربعمائة رجل من المدينة المنورة إلى مكة؛ لإداء مناسك العمرة، ملبين بالتلبية المعروفة، وساق معه سبعين جملاً أضاحي من أجل تقديمها عند المسجد الحرام. وثمة سؤال يطرح وهو: ما العلّة لتوجه النبي إلى مكة لإداء مناسك العمرة، وهي تحت هيمنة المكيين، دون نية الحرب، بمعنى هل كان قاصدًا لشيء ما؟!.

ولعل الجواب على ذلك يكمن في الأمور الآتية:

1- أن الحج والعمرة تقليد عربي قديم، وثمة شك عند القبائل العربية بأن النبي سيغادر هذه الشعيرة الدينية- الإقتصادية؛ لذا أراد النبي إرسال رسائل إطمئنان لهم، بأنه لا ينوي ذلك بالمرة، فكل ما بالأمر أن هذه الشعيرة يجب أن تتم على وفق القواعد الشرعية الإسلامية، وليس في ضوء التقاليد العربية الوثنية التي غالبًا ما تهتم بالربح المادي وبمكانة الزعامات القبلية، وتتم بطقوس شركية مخالفة للتوحيد الديني السماوي.

2- إن نجاح المسلمين في إداء مناسك العمرة بشكل هادىء، يعني هذا بشكل واضح تبليغًا ناجحًا للإسلام، بالذات إذا ما رافقه سيادة روح الإسلام ومنطقه الأخلاقي في التعامل مع الخصوم، مما يسهم في إظهار سماحة الإسلام وإنسانيته للجميع، ويكشح الصورة السلبية التي صورها المشركون للناس مدة زمنية طويلة عن الإسلام الحنيف. ولما ذهب النبي إلى مكة وهو لا ينوي الحرب بالمرة، لفت إنتباه العرب المشركين لكذب قريش. وبذلك ضرب النبي عصفورين بحجر واحد، إذ إن رفض قريش لدخول النبي وأصحابه اظهرهم جماعة معتدية أوقفت جماعة مسالمة عن إداء فريضة الحج والعمرة المقدسة عند العرب القدماء، وأيضًا أسهمت هذه الحركة من النبي في تخفيف الضغط عليه بعدّه رجل يعظم البيت الذي تحج إليه العرب؛ مما بدد مخاوفهم في تزحزح مكانة مكة الدينية في نظر العرب عمومًا.

3- إن ذهاب النبي إلى بيت الله الحرام وأداء مناسك العمرة هو أمر متناسب مع التكليف الشرعي والتعظيم الواجب إظهاره لبيت الله الحرام وللطقوس الشرعية الإسلامية.

وعلى أيّة حال لما خرج النبي مع أصحابه صلى الظهر" **بذي الحليفة**" ولبى وتوجه نحو مكة، ووجدت قريش أنه من المعيب أن يدخل النبي مدينتهم عليهم؛ خوفًا على سمعتها أمام باقي العرب، وحتى لا يقولوا أن النبي دخلها بالقوة، الأمر الذي سيضر بسمعتهم أمام القبائل العربية،وذلك لطابع العداوة

السابق بينهم وبين النبي؛ لذلك إستعدت قريش للحرب إذ خرجت صغارًا وكبارًا تدافع عن كيانها ووجودها الإجتماعي– الديني.

ومهما يكن من أمر في لبس القرشيون جلود النمور وعسكروا "**بذي طوى**"، وعاهدوا الله بألاّ يدخل النبي مكة بأي ثمن كان، وجعلوا خالد بن الوليد على رأس مائتين من خيلهم، حيث قادها إلى كراع الغميم. وبالرغم من التحشيد القرشي إلاّ أن النبي أظهر عزمًا واضحًا على أستخدام السُبل السلمية للمُضي قدمًا والدخول إلى مكة وأداء مناسك العمرة. وعلى الرغم من النزوع السلمي للنبي، إلاّ أن بعض المتطرفين من القرشيين حاول إفتعال الحرب مع النبي بأي شكل كان، ففهموا أن النبي إذا ما سيطر على مكة، فهذا يعني تدمير مكانة المكيين الإجتماعية– الدينية والإقتصادية–السياسية. ومن أجل تجنب الصِدام غَيّر النبي مسار جيشه حتى وصل "**ثنية المرار**" قرب الحديبية حيث بركت ناقته هناك، وقرر إذا ما طلب منه القرشيون أي صلة رحم بأنه أعطاها لهم، قاطعًا بذلك الطريق على أيّة محالة لإشعال نار الحرب بينه وبين القرشيين.

وحاولت قريش ثني الرسول عن عزمه، فأرسلوا له بديل بن ورقاء الخزاعي؛ لإقناعه بعدم دخول مكة، إذ أن القرشيين قرروا بالاّ يسمحوا للنبي بذلك، لكن النبي بيّن وبشكل واضح أن جاء معظمًا للبيت عارضًا عليهم هدنة محدودة يأمن فيها الناس. ومن أجل ذلك أرسل النبي عثمان بن عفان إلى قريش ليحاورهم في طلب النبي، فدخل ومعه عشرة من المهاجرين فالتقى عثمان بأبي سفيان وكبار قريش، والتقى المهاجرين بأهليهم لشرح وجهة نظر النبي ونيته، وكان من بين هؤلاء العشرة هو عبد الله بن عمرو بن سهيل وهو مؤمن على خلاف أبيه الكافر.

ومكث هذا الوفد ثلاثة أيام، فخاف النبي عليهم، وقيل بلغه مقتل عثمان، فدعا أصحابه للبيعة تحت الشجرة (بيعة الرضوان) على الطاعة والاّ يفروا. وفي أثناء الإستعداد للحرب بعثت قريش سهيل بن عمرو لمفاوضة النبي، وقد حمّلته قريش بالآتي: "**ائت محمد فصالحه، ولا يكن في صلحه إلاّ أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدًا**". وعلى أيّة حال تفاوض سهيل بن عمرو مع النبي بعد أن أعتذر منه وأطلق أصحابه "**عثمان والعشرة**"، وأطلق النبي أسارى قريش عنده. وحضر الصلح الإمام علي بن أبي طالب وأتفق الطرفان على الآتي:

1– أن تضع الحرب أوزارها بينهما لعشرة أعوام يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض.

2- من أتى محمدًا من قريش بغير أذن وليه رده عليهم، ومن جاء من قريش من أصحاب محمد لم يردوه إليه.

3- من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

4- أن يرجع محمد وأصحابه عنهم هذا العام، ويأتي في العام القادم، فيقيم ثلاثًا، ولا يدخل عليهم بسلاح، إلاّ سلاح المسافر، وتكون السيوف في القِرب.

وشهد على هذا الإتفاق أثنين من المسلمين ومثلهم من المشركين، وكتب منه نسختان، سلمت أحدهن إلى النبي، والأخرى لسهيل بن عمرو.

وبدا أن لفيف من المسلمين لم يكونوا ليوافقوا على الشروط المذكورة أعلاه؛ بدليل أنهم رفضوا حلق رؤوسهم والتضحية بالأبل حتى فعل النبي ذلك، إذ عّد المسلمون قبول النبي بهذه الشروط قد فوّت عليهم العمرة أولاً وعدّهم غير متساوين مع القرشيين عندما قبل النبي بشرط عدم إرجاع من أتى إليهم من المسلمين. لكن مع مرور الوقت أتضح لهم سعة أفق النبي وبعد نظره، فقد تحقق الآتي:

1- أن في صلح الحديبية أقرت قرش بحق المسلمين بأداء العمرة، حتى لو لم يسمحوا لهم إلاّ في العام التالي، إذ حصل ذلك وذهب النبي في سنة(7هـ/628م) ومعه كل مَنْ جاء في العام السابق وغيرهم، لأداء العمرة، وأذن بلال لصلاة الظهر فوق سطح الكعبة، وهذا ما يعّد ظفرًا كبيرًا للإسلام والمسلمين.

2- أتضح للمسلمين صواب موقف النبي بخصوص الفقرة(2) أعلاه، إذ عندما ذهب الصحابي عتبة بن أسيد الملقب" **أبي بصير**" إلى النبي فلم يقبله" **طبقًا لصلح الحديبية**" مما حدى به إلى أزعاج قريش بعد أن شكّل فريق تكون من سبعين رجلاً ضيّق عليهم بشكل كبير، وقطع طرقهم؛ مما دفع القرشيين إلى مخاطبة النبي وطلبهم منه ضمه إليه.

3- أن توقيع إتفاق صلح الحديبية أنما هو إعتراف قرشي بالمنتظم السياسي الإسلامي في المدينة المنورة، بأنه كيانًا سياسيًا مساويًا لهم في المكانة، وهذا ما أعطى الشرعية له أمام القبائل العربية التي أخذت تتعامل مع المسلمين كقوة موجودة على الأرض. كما إن الصلح أرسى لنمط تحالف بين العرب والمسلمين، دون الخوف من قريش وغصبها، مما أسهم في عقد محالفات عربية مع المدينة المنورة وفتح الطريق مشرعًا لسلسلة مهمة من عمليات دخول العرب إلى الإسلام خلال سنتين تلت وأقصد بذلك هو تقاطر المسلمين على المدينة المنورة في عام الوفود سنة(9هـ/630م).

4- نزلت سورة الفتح أيدت ما كان من أمر الحديبية، وبذلك أصبح الصلح من أعظم فتوح الإسلام.